مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية
ISSN 2170-0370/E-ISSN 8127-2710
المجلد (12) العدد (1) – 2021،ص ص(255-282)

جوانبٌ من الحياة الاجتماعيَّة لأولاد نائل وجغرافيتهم خلال القرنين 18-19م من خلال كتب الرحلة المحليَّة والأجنبيَّة

Life Social and Geography of Oulad-Nail Tribes During the 18th-19 Century Throughout the Trip Books of Local and Foreigners

حسن بربورة [1]*، أنيسة كنداري [2]

[1] جامعة يحي فارس المدية (الجزائر)، Barbora.hacen@univ-medea.dz

[2] جامعة يحي فارس المدية (الجزائر)، anissakandari4@gmail.com

تاريخ الاستلام : 2020/10/16 ؛ تاريخ القبول : 2020/12/07 ؛ تاريخ النشر : 2021/01/13

الملخص

شَكَّلت رُبُوع أولاد نائل والمناطق المجاورة لها بفضل موقعها الاستراتيجي مَعْبَرًا لكثيرٍ من الرّحلات، خاصّةً خلال القرنين 18–19م ، نذكر منها رحلاتٍ محليَّةٍ كرحلة الباي محمد الكبير سنة 1785م نحو الجنوب الجزائري، والتي سجّلها أحمد بن هطال التلمساني، ورحلة عبد الرحمان بن إدريس التنيلاني سنة 1816م، من قصور أدرار نحو ثغر الجزائر، أو حتى الرَّحلات التي قام بها أجانب، كرحلة الفرنسي "موباسان" خلال النصف الثاني للقرن19م، ورحلة "فرومونتان" التي قادته نحو الأغواط وعين ماضي خلال القرن 19م مرورًا برُبُوع أولاد نائل.

هي كلها رحلاتٌ حملت في ثناياها بعض المعالم التوبونيميّة لرُبُوع أولاد نائل، مع ذكر أخلاقهم وطبائعهم، وكذا طبيعة حياتهم ومعيشتهم، لذا تطرح هاته الورقة الإشكاليَّة التَّالية: كيف كانت الحياة الاجتماعيَّة لقبائل أولاد نائل، وجغرافيتهم في استغرافيا الرحلة المحليَّة والأجنبيَّة خلال

Abstract

The lands of Oulad Nail and the neighboring territories formed due to its strategic location a pass route to a lot for many trips, especially during the 18th and 19th century, in which we mention local trips, like the trip of El-bay Mohamed AL-KBIR in 1785 towards the Algerian south, which was recorded by Ahmed bin Hattal AL-TILIMSANI, also the trip of Abd el-rahman ben idris AL-TINILANI in 1816 from Adrar to city of Algiers, Or even the Trips of foreigners like the French Maupassant during the second half of 19th century, Also the trip of Fromentin which led him to Laghouat and Ain-madhi during the 19th century across the territories of Oulad Nail.

These trips all contained some of the toponymic manifestations of Oulad Nail's territories, And mentioning their ethics and characteristics and the nature of their life, So in this paper we try to answer this

القرنين 18 و19م؟.

الكلمات المفتاحية: قبائل أولاد نائل؛ قرنين 18–19م؛ كتب رحلة محليَّة؛ كتب رحلة أجنبيَّة

question: How was the life and traditions and the geography of the Tribes of Oulad Nail in histographie of local and foreign books during the 18th and 19th century ?.

Keywords: Tribes Oulad Nail; 18th and 19th century; local trip books; foreign trip books.

*المؤلف المرسل.

I- تمهيد :

تُعدُّ الرّحلات مصدرًا تاريخيًا مُهمًّا من مصادر التَّاريخ، باعتبارها أوفى المصادر وأوثقها، من خلال تناولها بالوصف الدّقيق للجغرافيا، ولأحداث التَّاريخ السِّياسية، الاقتصاديَّة، العلميَّة، الاجتماعيَّة والثَّقافيَّة، وتقديمها لكنوزٍ نفيسةٍ من المعلومات، لا يمكن الاستغناء عنه لفهم تاريخ أيَّ منطقةٍ، ولعلّ ما يُلخِّصُ شَغَفَ النّاس بالحِلِّ والتّرحال قول ابن زاكور الفاسي: «..فإنّ الرّحلة مِنَّةٌ من الله نِحلةٌ تُكسِبُ الغليظَ الطِّباع غَايةَ الرِّقَّة والانطباع، وتُعقب من كَابَدَ لَهَا نَصَبًا عِلمًا غزيرًا وأدبًا».

وقد حظيت الجزائر خلال العهد العثماني، وبداية الفترة الاستعماريَّة باهتمامٍ كبيرٍ في أدبيات الكتابة لدى كثير من الرَّحالة، الذين استطاعوا أن يُعطونا صُورةً صادقةً عن واقع الجزائر كمُجتمعٍ تَحكُمُهُ عاداتٌ وتقاليدٌ مُعيّنةٍ، وكنظامٍ سياسيٍ يخضع لسُلطةٍ دينيَّةٍ ذات أبعادٍ مذهبيَّةٍ مُختلفةٍ، وكمنطقةٍ جغرافيَّةٍ غنيةٍ بثرواتها الطّبيعية، لقد اهتمَّ هؤلاء الرَّحالة المحلّيين منهم والأجانب، بزيارة مناطق الجزائر وعملوا على توثيق العديد من المشاهدات والأحداث والأشياء التي تعرّفوا عليها أو شاهدوها أو تعاملوا معها في رحلاتهم، فكانت رُبُوع أولاد نائل محطَّةٌ هامَّةٌ لرحلاتهم، حيث ساهم العديد منهم باختلاف أجناسهم وأهدافهم، مُساهمة فعّالة في اكتشاف تاريخ المنطقة وكتابة معالمها الجغرافيَّة، خاصة فترة القرنين 18-19م.

I. كتب الرحلة قراءة في الدوافع، الأنواع والمضامين :

الرّحلةُ مُشتقّةٌ من الارتحال (أنظر التعليق رقم:1)، لأجل تحقيق هدفٍ معيَّنٍ، ماديًا كان أو معنويًا، وقد شكّلت الرحلات مجالاً مرجعيًا مهمًّا، ومادة أساسية أصبح الباحث يُؤسّس عليها معلوماته النّظرية، ويبني أفكاره التَّاريخيَّة، وتتعدّد الدوافع التي تُحمِّسُ الإنسان للرحلة وتختلف من شخص إلى آخر ومن زمن لآخر، إلا أنّها في الأغلب لا تخرج عن أن تكون بسبب إمّا: دوافع دينيَّة لآداء الحج والعمرة أو لزيارة الأماكن المقدسة، أو لأسبابٍ

علميَّةٍ وتعليميَّةٍ، أو لدوافع سياسيَّةٍ كالرَّحلات السِّفارية، أو بسبب النَّفي أو هجرة الحكَّام والأوطان، كما قد تكون دوافع الرحلة اقتصاديَّةً بحتةً بحثًا عن التِّجارة وكسب الرزق، أو أحيانًا استكشافيَّة سياحيَّة، أو حتى لدوافع حربيَّةٍ (الشاهدي، 1990: 63-69).

انطلاقًا من تعدّد دوافع الرحلة تعدَّدت أنواعها أيضًا، بتعدُّد أصول الرحالة ومشاربهم الثَّقافية والاجتماعيَّة، وحتى أغراضهم السوسيولوجيَّة، فنجد الرحلات الحجازية (للمزيد أنظر: أبو القاسم سعد الله، 2007: 177-200) وهي التي اختصّ بها الرحالة المسلمون من أدباء وعلماء ومُتصوِّفة مغاربة نحو البقاع المقدَّسة، من أجل تأدية مناسك الحجِّ والعمرة، حيث برعوا في وصف رحيلهم وإقامتهم، حتى أصبحت كتبهم دليلًا ومُرشدًا (مولاي بلحميسي، 1981: 12)، كما نجد الرَّحلات العلميَّة وهي التي سجَّلها ودوَّنها العلماء وطلبة العلم، أثناء مسيرهم إلى مختلف البلدان والأمصار، ومن لقُوه من الشُّيوخ والعلماء، إضافةً للإجازات والفهارس والأثبات، وهاته الرَّحلات وإن ضَحَّت قليلاً بوصف البلدان والمجتمع، فإنها تفنَّنت في الحديث عن الحياة الفكريَّة والنَّشاط الثَّقافي (بلحميسي، 1981: 10)، مثل رحلة أبي راس الناصري (1165-1238هـ) (حول حياته أنظر: سعد الله، 1998: 376-378) المعنونة بـ: "رحلتي للمشرق والمغرب وغيرهما، ولقاء العلماء الأعلام، وما جرى لي معهم من المراجعة والكلام"، وكذا رحلات الأوربيين، الذين كانوا مُتعدِّدي الاهتمامات والاختصاصات، الأمر الذي جعل مادَّتهم الخبرية المدوَّنة ثريَّةٌ، نذكر من بينهم عالم الطَّبيعة والنَّبات "ديفونشين" الذي زار الجزائر بين سنتي 1783-1784م، وترك عملاً هامًّا لمعرفة أنواع النباتات والمناجم في الغرب الجزائري (عميراوي، 2009: 13).

نُميّز أيضًا من بين أنواع الرحلة الرَّحلات السِّياسيَّة والعسكريَّة، وهي التي تُؤرّخُ للحملات التي يقوم بها الحكَّام والأمراء، وقد نشط هذا النَّوع من الرَّحلات في الجزائر خلال العهد العثماني وكذا بداية العهد الاستعماري الفرنسي، ففي العهد العثماني مثلًا شجَّعه باي الغرب الجزائري، حيث كتب ابن هطَّال التِّلمساني "رحلة الباي محمد الكبير إلى الجنوب

الجزائري"، كما كتب مصطفى بن عبد الله الدحاوي "الرحلة القمريَّة في السِّيرة المحمديَّة"، والتي يُؤرِّخ فيها لحملة محمد بن عثمان الكبير على مدينة وهران لتحريرها من الأسبان، خلال الفترة (1205-1206هـ)، نجد أيضًا الرَّحلات التِّجارية والتي غالبًا ما يكون دافعها التِّجارة والتّكسُّب، مثل الرحلة التي قام بها عبد الرزاق بن حمادوش لطلب العلم والتجارة معًا، من الجزائر إلى مدن تطوان، مكناس وفاس بالمغرب، والمسمَّاة "لسان المقال عن النَّسب والحسب والحال" (سعد الله، 2007: 221-242) والتي ضمّنها جوانب من الحياة السياسية والاقتصادية والعلميَّة في المغرب (سعد الله، 1998: 384-385).

كما ظهر نوعٌ من الرَّحلات منذ القرن 16م، حين كان السَّلاطين يُعيِّنُون بعض المقرّبين لهم للقيام بمهمّات في البلدان الأجنبيَّة، أو الإسلاميَّة لدى ملوكها، مثل رحلة التمقروتي (سنة 1580م)، وهو ما أصطلح عليه بالرحلات السِّفارية (بلحميسي، 1981: 11)، هذا إضافةً للرَّحلات الاستكشافيَّة، التي قام بها مُحِبُّوا التّجوال والمغامرة، محلّيين كانوا أو أجانب، والتي غالبًا ما كانت تستغرق شهورًا أو سنوات، يُدوِّنُون أثناءها ما يعجبهم أو يجلب انتباههم، ومن أشهر هاته الرحلات ما قام به ليون الإفريقي مطلع القرن 16م، وكتابه "وصف إفريقيا" (بلحميسي، 1981: 11)، كما قام الكثير من الأوربيين بزيارات استطلاعيَّة للجزائر، منذ بداية العهد العثماني، وهي أكثر من أن تحصى، لكن نذكر منها رحلة الانجليزي "توماس شو" Show، رحلة الألماني "فيلهلم شيمبر" Vilhelm Chamber، وغيرهم الكثير (عميراوي، 2009: 10-13).

لا تتحدَّدُ ماهيّة وقيمة كتب الرَّحلات بصفتها كتباً جغرافيَّةً أو تاريخيَّةً، بقدر ما تتحدّد بصفتها كُتُباً علمية تأمُّلية فلسفية وأنثربولوجيَّة، تتعلّق بتأثُّر نظرة المؤلف الأخلاقيَّة، وتكوينه الثَّقافي وخياله الأدبي ووعيه السِّياسي، بثقافات تلك الشُّعوب وعاداتها وعقائدها من جهةٍ، وتأثير هذه الثَّقافات في وعيه التَّاريخي والسِّياسي والأخلاقي من جهةٍ ثانيةٍ، وما يُؤيّد هذه النظرة أنَّ كتب الرَّحلات كثيراً ما تنقلب إلى تأمُّلات في المبادئ التي تتطوَّر من

خلالها المجتمعات، وبحث عن العوامل التي تعطي الشعوب القوَّة والتَّمدُّن (أنظر التعليق رقم: 2).

لقد تكاملت أنواع الرَّحلات في إبراز ما يطبع البيئة جغرافيًا، اجتماعيًا وحضاريًا في البلدان التي شملتها، وصارت مرجعًا مهمًّا للاستشهاد بها في الدِّراسات الأكاديميَّة، نظرًا لما تضمَّنته من مادةٍ علميَّةٍ غنيَّةٍ، فتعدَّدت بذلك وتنوّعت قيمتها (ماكمان، د.ت: 63)، ومن أهم ما يمكن أن نشير إليه في هذا المجال القيمة الجغرافيَّة حيث تفيد الرَّحلات في التَّعرف على الطُّرق والمسالك القديمة التي سلكها الرَّحالة برًا وبحرًا، وتُرشد إلى المسالك التي تربط المدن والمناطق بعضها ببعضٍ، إضافةً لوصف الجوانب الجغرافيَّة والطَّبيعيَّة، كالحديث عن السُّيول والأمطار والثُّلوج وحركة الرياح، كما يمكن بفضل كتب الرحَّالة التَّوصل إلى ضبط المسافات بين البلدان، انطلاقا من ذكرهم للمراحل وتحديدهم للزّمن (المؤدن، 2006: 20).

لقد تفنّنت كتب الرحلة أيضا في وصف البلدان التي مَرَّ بها الرّحالُون أو نزلوا فيها، حيث أعار الرَّحالة اهتمامًا خاصًّا لمشاهداتهم أثناء تجوالهم داخل البلدان، من وصفٍ للآثار المختلفة، والأضرحة والزَّوايا وغيرها (غريب، 1966: 26-27)، وإضافة للقيمة الجغرافيَّة، لم تخلو نصوص الرَّحلات من مادة علميَّةٍ تخصُّ مختلف الظَّواهر الطَّبيعيَّة كوصف الشبكة الهيدروغرافيَّة والغطاء النَّباتي والمناخ السَّائد آنذاك (عمارة، 2017: د.ص)، كما أسهب الرَّحالة العلماء وطلبة العلم في ذكر شيوخهم، ومجالسهم العلميَّة والعلوم والفنون التي ناقشوها، واهتمّت العديد من كتب الرحلة بجمع الأسانيد والرِّوايات والقصائد والدَّواوين الشِّعريَّة والفهارس وغيرها، وبذلك تفيد كتب الرحلة في التّعرف على المجالس العلمية التي كانت سائدة ومختلف أنواع العلوم، كالفقه والحديث وعلوم القراءات والدِّراسات الحديثة والتَّصوُّف وغيرها (الشاهدي، 1990: 537)، أما القيمة الدينيَّة للرَّحلات الحجازيَّة تحديدًا، فيمكن تلخيصها في تأدية شعائر الحجِّ أو العمرة، مجاورة الحرم، طلب العلمي الشَّرعي، زيارة الأماكن المقدَّسة، وقد كان الكثير من الرَّحَّالة لا يكتفي بزيارةٍ واحدةٍ بل

يُكرِّرُها لمرَّاتٍ عديدةٍ (دباح، 2017: 51)، كما حفلت كتب الرِّحلة برصد مظاهر وقيمٍ اجتماعيَّةٍ هامَّةٍ، من تسجيلٍ لأنماط المعيشة والعادات والتَّقاليد، حيث كان الرَّحَّالة يختلطون بأفراد المجتمعات، ويُجالسونهم ويتحدثون إليهم، مما جعلهم على اطِّلاعٍ واسعٍ بأحوالهم وعاداتهم وأنماط سلوكهم، وقد ضمَّت رحلة "الوزان" ورحلة "ابن بطوطة" على الخصوص، سجلاً حافلًا بأخبار النَّاس وعاداتهم وأخلاقهم ومذاهبهم (عواطف نواب، 2008: 20)، وتضمَّنت أيضًا الكثير من كتب الرِّحلة نصوصًا أدبيَّةٍ كثيرةٍ، ممثَّلةً في الشِّعر والنَّثر والنَّقد، فأغلب الرَّحالة حرصوا على نقل الأشعار وروايتها، وسجَّلوا لأنفسهم قدرًا مهمًّا من القصائد الشِّعريَّة، فكانت بمثابة دواوين لأصحابها، كما تمَّ بفضل هاته الرِّحلات الاحتفاظ بالكثير من الآثار الأدبيَّة النَّادرة كقصيدة ابن الفكُّون في رحلته من قسنطينة إلى مراكش (الشاهدي، 1990: 539).

II. نماذج من الرِّحلات المحليَّة والأجنبيَّة:

سنُعرِّف ونقدِّم في هذا الجزء وباختصارٍ، ببعض الرِّحلات المحليَّة والأجنبيَّة التي اخترقت ربوع أولاد نائل (أنظر التعليق رقم:3)، والتي اعتمدنا مادتها في هاته الدراسة.

II.1- رحلة المغربي النَّاصري الدِّرعي (1709-1710م) :

انطلق الدرعي (أنظر التعليق رقم: 4) في رحلته للحجِّ، من الزَّاوية النَّاصرية بالمغرب يوم الخميس 24 جمادى الأولى 1121هـ/31 جويلية 1709م، ليصل إلى مكَّة المكرمة يوم الخميس 6 ذي الحجة 1121هـ/6 فيفري1710م (أبي العباس أحمد بن ناصر الدرعي، 2011: 90، 364)، في مسيرة دامت ستة أشهر، أمَّا في طريق العودة فإن الركب النّاصري غادر مكَّة المكرمة يوم الأحد 23ذي الحجة سنة 1121هـ/23 فيفري 1710م، ليصل الزَّاوية الناصرية يوم الخميس 6 رمضان 1122هـ/29 أكتوبر 1710م (الدرعي، 2011: 475، 739)، لتستغرق رحلة العودة مدة ثمانية أشهر ونصف، وقد اخترق

الدّرعي وركب الحجيج معه، ربوع أولا نائل منتصف رجب 1121هـ/ منتصف سبتمبر 1709م، من جهة (العسّافية) بالأغواط غربا إلى غاية مجال سيدي خالد، أما رحلة الإياب فمرَّت بالمنطقة بعد 19 رجب 1122هـ/10 سبتمبر 1710م، ليستغرق ما يقرب الشهرين للوصول إلى المغرب (عمارة، 2017: د.ص).

II.2- رحلة الشَّيخ التّنيلاني (1816م) :

انطلق التنيلاني من زاوية تنيلان بالجنوب الجزائري باتِّجاه ثغر الجزائر المحروسة في الأول من شهر شعبان سنة 1231هـ/1816م، مرورًا بقصر تيميمون، ثم بلاد امزاب ومتليلي فقصر القرارة (برّيان)، مرورًا بربوع أولا نائل، ثم إقليم التِّيطري وعاصمته المدية، فالبليدة وأرض متيجة، وصولًا إلى ثغر الجزائر المحروسة، وقد تميَّز الشَّيخ التّنيلاني في كتابة رحلته بدقَّة الوصف (براركة، 2016: 55)، حيث نجده يهتم بدقائق التَّفاصيل حول تلك الفئة أو القبيلة، ويعمد لوصف المناطق الجغرافيَّة والطَّبيعيَّة، وقد مكث في مدينة الجزائر أزيد من شهر، شهد خلالها أحداثًا كبيرةً في تاريخ الجزائر، حيث تزامنت رحلته مع الحملة الانجليزيَّة-الهولنديَّة على المدينة "حملة اللورد اكسمورث"، فوصف بإسهاب أحداثها وأسبابها (شترة، د.ت: 32).

II.3- رحلة ابن هطَّال التِّلمساني (1816م):

دوَّن رحلة الباي محمد الكبير (أنظر التعليق رقم:6)، الباش دفتردار أحمد بن هطَّال التِّلمساني (أنظر التعليق رقم:7)، وكان دافعه للكتابة حربياً سُلطوِياً، حيث استجاب لرغبة الباي، الذي طلب منه مرافقته أثناء الغزوة وتسجيل أحداثها، خاصَّةً وأنها رحلة حربيَّةٌ باتجاه الجنوب الصَّحراوي الجزائري « نازحاً من معسكر إلى أن وصل مدينة الأغواط، مُخضعاً القبائل التي مرّ بها، وُملزِماً إياها بالاعتراف بدولة الأتراك في الجزائر» (ابن هطال، 1969: 116)، وقد تضمّنت الرحلة أخبارًا جغرافيَّة، اجتماعيَّة، أدبيَّة، سياسيَّة وعسكرية، لا يستغني عنها أي دارس لتاريخ الجزائر خلال القرن 18م (سعد الله، 2007: 358)،

حيث استهلَّ ابن هطال رحلته بتمهيدٍ، عالج فيه فضل علم التَّاريخ ثم غرضه، مُبرزًا خصال وصفات الباي محمد الكبير، ثم موضوع الرِّحلة وزمانها ودوافع الباي، المتمثِّلة في مناجزة القبائل المستقلة جنوب الهضاب العليا ومعاقبة المتمرِّدين (ابن هطال، 1969: 36-37)، ليشرع بعدها في تسجيل أحداث الرحلة من يوم الخروج من معسكر الخميس 19يناير 1785م إلى يوم الرجوع الأربعاء 10 مارس 1785م.

وقد كان ردُّ القبائل المستقلة متباينًا من هاته الحملة العسكريَّة، ففي حين سارعت بعض القبائل لإعلان طاعتها وتقديم الفيء مثل قبائل أنقاد (أنجاد)، وقبائل الأحرار الغرابة والشَّراقة ، وتاجموت وعين ماضي، فإن قبائل أخرى خضعت لحكم الباي بعد حصار أو إغارة وقتال أو كلاهما معا، مثل قبائل خنيق الملح، وتاولالة وقصر أوفل (أفلو) وأعراب القعدة وأولاد نايل بزنينة، الذين سبق لهم أن طردوا باي التِّيطري، إضافةً إلى سكَّان مدينتي عين ماضي والأغواط (بن عتو، د.ت: 108-111).

كما لم يفت ابن هطَّال في رحلته إضافةً لتعداد أماكن نزول "الباي" ونقله المباشر لأحداث الرِّحلة، تصوير الوقائع التي حدثتْ والاهتمام بتوثيق الأزمنة توثيقاً دقيقاً، ووصف العنصر الطَّبيعي وتضاريس المناطق، لتظلَّ رحلته جسراً تاريخياً، يُمثِّل فترةً معيَّنةً من حُكم الأتْرَاك في الجزائر، ونَصّاً توْثيقياً يسردُ طغْيان الجانب العسكري لدَى الأتْرَاك، وحِرْصهُمْ على الهيْمنة، ولا عجب في ذلك حيث يقول: « ظلّ الوجود العسكري هو الظاهرة المميِّزة للحكم العثماني في الجزائر، بل هو الظَّاهرة المميِّزة أيضاً لهذا الحكم في جميع أنحاء الدَّولة العثمانيَّة» (سعد الله، 1998: 141).

II.4- رحلات الفرنسي أوجين فرومونتان (1852م) :

قام الرحالة "فرومونتان" Eugène Fromentin (أنظر التعليق رقم:9) بثلاث رحلاتٍ إلى الجزائر، كانت الأولى سنة 1846م، رفقة زميله دي ميسنيل Armand De Mesnil، ودامت أسبوعين فقط، (Fromentin, 1981: 290)، أما الثَّانية فكانت سنوات 1847-1848م، ودامت فترة أطول (حوالي ثمانية أشهر)، وبعد أربع

سنوات، أي في بداية نوفمبر 1852م عاد أوجين إلى الجزائر، في رحلة باتجاه الصحراء (الأغواط)، مرورًا بالمدية، قصر البخاري، عين وسارة، الجلفة وسيدي مخلوف، ودامت تسعة أشهر كاملة، وهي التي عنونها بـ: "صيف في الصحراء" Un Eté dans le Sahara، ونُشرت لأوَّل مرة سنة 1856م (علالي، 2014 :17).

II.5- رحلة الفرنسي غي دو موباسان (1881م) :

"غي دو موباسان" Guy De Maupassant (للمزيد حول حياته أنظر التعليق رقم:10) رحَّالةٌ وروائيٌّ فرنسيٌّ، اكتشف الصحراء وأولاد نائل قبل أن يزور الجزائر، من خلال قراءته لرحلة فرومونتان، وبعد زيارته لها رفقة صديقه غاري أليس، في جويلية 1881م للتَّحقيق حول ثورة الشَّيخ بوعمامة، كتب رحلته في شكل مقالات ونشرها بعد عودته إلى فرنسا في مجلة Le Gaulois بين سنوات 1883-1884، ثم طبعت في كتاب مستقلٍّبعنوان "تحت الشمس" .Au soleil « Province d'Alger »، وقد مكث موباسان ثلاثة أشهر كاملة في الجزائر، جاب خلالها أغلب مدن الجزائر، فتعرّف على مدينة الجزائر، وقطع سهل متيجة باتجاه وهران، وعاين عن كثب حياة البدو في ربوع الجلفة وبوسعادة، وأعجب بنمط حياة سكان القبائل، وسحرته شعاب قسنطينة وشواطئ جيجل، ولعل رغبته في التعرّف على الحياة في الصحراء ومعيشتها هي التي دفعته إلى المغامرة والمخاطرة بحياته.

III. - ربوع أولاد نائل من خلال كتابات الرحلة في القرنين 18-19م :

III.1- خلال العهد العثماني:

من خلال استقراء كتب الرِّحلة السَّابقة نستطيع استخلاص كثيرٍ من الخصائص الاجتماعيَّة لقبائل أولاد نائل، وحتى أيضًا بعض خصائص المنطقة الجغرافيَّة باعتبارها ملتقى وممر استراتيجي لشتَّى القوافل والجيوش والحملات، سواء في العهد العثماني خلال القرن 18م، أو عهد الاحتلال الفرنسي في القرن19م.

جُغرافيًا، استوطنت قبائل أولاد نائل منطقة السُّهوب الوسطى (أنظر: خريطة القبائل الجزائرية ghouati CARTE TRIBUS Algérie carette et

warnier 1846 في الملحق)، تلك المناطق التي تمتدُّ إلى ما وراء جبال التيطري وبوغار والونشريس شمالًا، ومشارف الصحراء (قصور الأغواط ووادي جدي) جنوبا، وبين مرتفعات الزَّاب الغربي وجبال بوكحيل وجبال الأطلس الصَّحراوي، ويحدُّها بوسعادة وشطُّ الحضنة شرقًا، ووادي الطويل وجبال عمور وطاقين وزنينة غربًا (تلمساني، 2015: 15؛ Fromentin, 1856: 68-69)، ولم تدخل هاته الربوع –ربوع أولا نائل- تحت الوصاية العثمانيَّة (بايلك التيطري) التي امتدَّت إلى مدينة الأغواط إلَّا سنة 1725م، حيث كُلِّفَ باي المدية بجمع الغرامات عن طريق ممثِّلين له من أعيان القبائل، ونظرًا لطبيعة أولاد نائل المتميّزة بالتَّرحال، لم يكن للعثمانيّين عليهم سوى سُلطةٍ رمزيَّةٍ، حتى أنَّ أولاد نائل كانوا غالبًا ما يرفضون دفع الأموال، والقيام بانتفاضاتٍ وتمرُّداتٍ، مما اضطرَّ الباي لشنِّ الغارات على القبائل التي ترفض الدَّفع (خضرون، 1996: 39).

ومن تلك التَّمردات ما ذكره ابن هطَّال التِّلمساني في رحلته (حملة الباي محمد الكبير إلى الجنوب الجزائري) لتأديب قبائل أهل زنينة، التي قتلت جنودًا لبايلك التِّيطري، حيث يقول ابن هطال: "..وفي طرف الأخضر (يقصد الجبل الأخضر) من جهة الشَّرق قرية تُسمَّى الشَّارف، وحيث نزل هذا الموضع (يقصد الباي محمد الكبير) ذكرت له مدينة وهذه المدينة تُسمَّى زنينة قريبة من الدبداب... وهي لبعض الأعراب الذين لا حُكْمَ عليهم لأحدٍ وأهلها أصحاب قوَّةٍ وعُدَّةٍ وعِزَّةٍ وقد ذكروا له أنَّ باي التِّيطري نزل عليها فطردوه وقتلوا له رجلين.." (ابن هطال، 1969: 49-50).

هكذا يصف ابن هطال قبائل أولاد نائل بالقُوّة والعُدّة والعِزّة، وصفٌ يؤكده أيضا الشيخ التينلاني أثناء مروره بالمنطقة، في رحلته إلى ثغر الجزائر سنة 1816م، ويضيف عليه قُوّة تمسكهم بالدين واهتمامهم بحفظ كتاب الله، وتقديرهم لأهل العلم والصلاح، كما يُحدّد مناطق توزّعهم جغرافيا، يقول التنيلاني: « ..وخَرَجْتُ منها قبل طُلُوعِ الفجر بكثير، يوم التّاسع، وهو الثّامن عشر من رمضان مع عرب النّوائل وهم ما ذُكِرَ من حُسْنِ عرب النّوائل، أكثر قبائلِ العَربِ رِجَالاً ومَاشيةً وخيلاً، ومساكنهم مابين مدينة اقْسَمْطِينْ والجزائر وبُسْعَادَهْ

وواد الجرير امزاب ووَرْقْلَ ولقرَارَ، ونِعْمَ العربُ هُمْ في الله، كَثَّرَ عرب المسلمين من أمثالهم، وهُم أَهْلُ بيت الرّحمة، ما رأيت ولا سمعت من العُلماء وحمّالة القرءان مثلهم، ولو قلت إني رأيت فيهم من البُرُور والرحمة والرأفة والحنانة ما لم أراه في والي، ما كذبت ولو مرَّ بي أحدُهُم عشر مرَّاتٍ لا يمرُّ حتى يُقبِّلُ يدي أو كِسَائِي..أهلُ وُضُوءٍ وصَلاةٍ وزَكَاةٍ ورحمةٍ" (براركة، 2016: 56-57)، يؤكِّد ما سبق، انتشار الزَّوايا في المنطقة وجوارها خلال الفترة العثمانيَّة، والتي تمثّل دورها في تحفيظ القرآن، والحفاظ على اللُّغة العربيَّة والتربية الرُّوحية، إضافةً للدَّور الاجتماعي والمتمثّل خاصَّةً في رعاية الفقراء والمحتاجين (للاستزادة ينظر: هزرشي، 2013: 117-127). ونذكر من بين الزَّوايا في تلك الفترة زاوية الشيخ بن عرعار بحاسي بحبح (1780م)، وزاوية عين اقلال ببويرة الاحداب (1811م)، وزاوية الشيخ محمد بن مرزوق ببنهار (1825م)، وزاوية الشيخ بولرباح بن محفوظ (1830م) والزَّاوية الشَّاذلية بالشارف (1820-1825م) (محفوظي، 2006: 25، 29، 31).

كما أنَّ الرَّحالة أبي العباس النَّاصري الدِّرعي، وفي رحلته الحجازيَّة مرورًا بالجهة الجنوبيَّة لربوع أولاد نائل، تحديدًا موضع دمّد (دمت-يكتبها هكذا)، يصف المجال الاجتماعي لأولاد نائل، حيث يُبيِّن كيف خرج أهلها برفقة إمامهم سيدي محمد بن مسعود لاستقبال الركب الحجازي والاحتفال به وهم في غاية الفرح، كما ترد إشارة هامَّة حول الشبكة الصُّوفية للطريقة النَّاصرية بالمنطقة، والتي على ما يبدوا أنها غيّرت من طباع أهلها: حيث يقول الدرعي: «.. وزعموا أنهم لم يزالوا على العهد تائبين، وللتَّعرض للرَّكب وتعاطي خيانتهم نابذين، وصدقوا والله أعلم» (أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، 2011: 133)، ويُقِرُّ الدرعي على خلاف الرحّالة أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي، الذي سبق له المرور بالمنطقة قبل أزيد من مائة سنة بأن المنطقة آمنة إذ يقول: « بات النَّاس ولم يروا بأسًا من سارقٍ ولا طارقٍ»، كما يُستفاد من رحلته حول النَّشاط التَّعليمي الدِّيني بالمنطقة، فبعد انتقاله من دمّد إلى البُرج، يذكر السيد: محمد بن عيسى بن يحى بن حرز الله، وينعتُه بالقارئ للقرآن الكريم (الدرعي، 2011: 133).

ويصف الكونت "دي سانفيتال" الطَّبائع والعادات الاجتماعيَّة لأولاد نائل، في مجلة الشَّرق (أنظر التعليق رقم:8) بأنها لا تختلف عن عادات البدو عمومًا، كما يقول بأنَّهم أصحاب ثروةٍ، فالكلُّ هنا أغنياء ولا وجود للفقر بينهم والنَّاس لا يُفكّرون في الرزق نظرا للتكافل الاجتماعي بينهم، ومصدر هاته الثروة غالبًا هو تربية المواشي والأنعام فضلًا عن بعض الأنشطة الزِّراعيَّة، ومن يُمارسون الزّراعة يكونون مُستقرّين سواءً تحت الخيام أو في بعض القُصور، كما أن منهم التُّجّار الذين يقُودون قوافل إلى تقرت، تماسين وبني مزاب (بن جدو، 2014: 104-105).

III.1- خلال العهد الاستعماري الفرنسي:

بسقوط مدينة الجزائر سنة 1830م، انتهى الوجود العثماني وبدأت مرحلة العهد الاستعماري، وضمن إستراتيجية الاحتلال الشَّامل، تزامنت عمليات التَّوغل الفرنسي في السُّهوب الوسطى وتخوم الصحراء، بعديد الرَّحلات لبعض الفرنسيين إلى المنطقة في رحلاتٍ استكشافيَّةٍ، لكنها كانت لا تخلو حتمًا من الطَّابع الاستخباراتي، وقد قدَّم كثيرٌ من هؤلاء وصفًا جغرافيًا دقيقًا للمنطقة وطبيعتها ومناخها، كما قدّموا جوانبًا مهمةً من الحياة الاجتماعيَّة لقبيلة أولاد نائل خلال القرن 19م.

يقول فرومونتان في كتابه "صيف في الصحراء" Un Eté dans le Sahara أن عرش أولاد نائل هو قبيلة من القبائل التي كانت تعيش في بوخاري- مقاطعة ما يُعرف حاليا بقصر البخاري- التي كانت تمثِّل مركزًا متقدِّمًا للجيش الفرنسي في شمال الصحراء، باعتبارها طريقًا ومدخلًا (بوابة) للصَّحراء الجزائرية، وأضاف أنّ الجلفة هي المدينة الرئيسية لأولاد نائل وعاصمتهم، وكانت تتواجد وسط الحلفاء، (Fromentin, 1856: 68-69)

أمّا "دو موباسان" في كتابه "Au soleil"، وفي الجزء المعنون بـ: (Le zare's) وهو اسمٌ لسبخةٍ، يقول بأنّ Boghari هي أوّل قرية نصادف فيها أولاد نائل، ما يعني أنّ عرش أولاد نائل كان يبدأ من قصر البخاري حاليا (Maupassant, 1884: 63)،

ووصف سبختين أحدهما تسمى بـ: زاغز Zare'z، طولها 60 كلم وعرضها حوالي 20 كلم، والسَّبخة الأخرى تُسمَّى الحُضنة (Maupassant, 1884: 107-108).

أما عن مناخ وطبيعة المنطقة، فيذكر "دي موباسان" أنَّ ترحاله في منطقة أولاد نائل كان حارًّا وجافًّا وحارقًا، لدرجة أنهم كانوا يضعون قطعةً من القماش على الرَّأس، فوقها قبَّعةٌ كبيرةٌ من القشِّ، وكان سيرهم بطيء يرون خلاله وعلى مد البصر أراضٍ قاحلة ذات لون أصفر خاليةٌ من الأشجار، كما يضيف أنه في بعض الأحيان كان يجد في المنخفضات برك لبقايا الوديان يحيط بها بعض الحشائش، وبعض الأحيان كان يرى سلسلة من الجبال فيها شجرتين أو أكثر، ممّا تدلاّن على وجود منبع مائي، ويضيف أنه ورغم كل هاته المظاهر الصَّحراوية، إلَّا انه لم يصل بعد إلى الأراضي الجافَّة التي ستصادفه فيما بعد(Maupassant, 1884: 81)

كما زار موباسان مع رفاقه جبل القعدة، والذي كان عبارة عن هضبة أخذت منهم ثلاثة أيام حتى يصلوا إلى طرفها الآخر، ويصف الأراضي خلفها بالواسعة والرملية، تكسوها الحلفاء التي أجبرت الأحصنة على المشي ملتوئةً ومتقطّعةً، إضافة إلى صعوبة المسلك الذي كان عبارة عن شعاب والتواءات، وقد شبّهها بالمحيط لشساعتها، وأضاف أن هاته الطبيعة الوعرة جعلت الجيوش الفرنسية تفشل في إيجاد الجنود، وأعطى مثالًا على مقاومة بوعمامة (Maupassant, 1884: 24) كما تحدَّث عن الرِّياح السَّاخنة التي كانت تهب في المنطقة والتي تدعى " السيروكو" (Maupassant, 1884: 84,85,103)، وأضاف أنه بالرَّغم من أن أغلب أراضي المنطقة قاحلةٌ، إلَّا أن هناك بعض البساتين القليلة التي كانت تحتوي على مجموعةٍ من الأشجار المثمرة، كالتِّين والمشمش والكروم والرمَّان، وكانت إحداها لآغا الجلفة (Maupassant, 1884: 115-116)، أما حيوانات المنطقة، فيذكر منها الأفعى ذات القرون، والتي تتميز بلدغتها القاتلة بعد ساعة فقط من اللدغ(Maupassant, 1884: 33) إضافةً إلى العقارب (Maupassant, 1884: 30)، والسُّحلية Lelézard، الثَّعابين وحيوانات أخرى مثل الضبّ الذي

أعطى له اسم سمكة الرمال، مع وجود حشراتٍ تغطِّي المكان، إضافةً للجِمال التي كانت تستعمل في التَّنقل، كما لا تخلو هاته الرُّبوع من الذئاب، الضباع، العُقاب والضَّفادع (Maupassant, 1884: 116,120,123,129).

أما الجلفة فيقول عنها موباسان، أنها مدينةٌ فرنسيَّةٌ صغيرةٌ، يسكنها الضبّاط الفرنسيون تحيط بها مجموعة من الهضاب والأراضي الجرداء، وعند خروجك منها تلاحظ قطعان الغنم التي تتميز بلون الرمل (Maupassant, 1884: 129)، وتتميَّز الحياة الاجتماعيَّة لأولاد نائل بالبداوة، ذلك أنهمُ رُحَّل دائمًا، يمرُّون بالمناطق ويرحلون، لا يتعلّقُون بالأرض، ولا يستقِرُّون فيها، لا يملكون منازل وإنما خيم، غير مؤثثة (Maupassant, 1884: 90).

وعن نساء أولاد نائل ومميزاتهن، فتعدّدت وتنوعت أوصاف الرحالة، يقول فرومنتان بأنه وجد في أولاد نائل، وغيرهم من قبائل البدو الرُّحَّل كالحرازلية، نساءٌ جميلات جداً، ولقبهنّ "بالراقصات"(Fromentin, 1856: 41,126). ويمتدح موباسان رقصة نائلية قدّمتها امرأة في بخاري، في إطار حفل محلي يُدعى "المبيتة" (أنظر التعليق رقم:11)، ووصف رقصتها وتفاعلها مع الموسيقى، يقول بهذا الصدد: "الراقصة تقوم بتحريك يديها الطويلتان والرقيقتان..، كانت متألِّقةً فيها، وتؤديها بشكلٍ رائعٍ، وكانت تلك الحركات تعبّر عن الحب"(Maupassant, 1884: 44)، وقد كان يرافق الرَّاقصات حسب موباسان خمسة موسيقيين فوق خشبة المسرح، أربعة مختصِّين في الطبل والخامس يعزف على النَّاي (القصبة)، يقول موباسان واصفا تلك الرقصات المتأنية: "إن وجه الرّاقصة يكون في اتِّجاهٍ معيَّنٍ وثابتٍ وتبدو عليه الصَّرامة وعدم الاكتراث بالحضور، حيث لا يتغيَّر اتجاهه ويبقى بشكلٍ مدهشٍ" وقد أبهره ذلك الآداء ووصفه بأنه أمرٌ غير عادي، حيث شبَّهها بإحدى التَّماثيل الفرعونيَّة المصريَّة (Maupassant, 1884: 67)، وفي موقف آخر يصف موباسان راقصتين نائليتين، حيث كان رقصهما عبارة عن مشي بتأني، تضربن بكعبيهما أثناءه على الأرض، مما يصدر عنه صوتٌ أو رنّةٌ، وكل ضربةٍ ينحني معها جسمهما بشكل

متناسقٍ، وكانت يديهما ممدوتان ومرتفعتان في مستوى واحد مع عينيهما، مع تحريك الرأس بشكل هادئٍ مع كل ضربة كعبٍ وتحريك الأصابع، ونظرة عينيهما نحو أصابعهما، حيث كل واحدةٍ منهما تبتعد عن الأخرى، ثم تقتربان وعند الالتقاء تُمسكان يدا بعضيهما، ثم تدوران حول بعضيهما مستعملتان قطعة طويلة من القماش -دونتال- تمتد من الرَّأس إلى القدم تشبه جناح الحمامة (Maupassant, 1884: 69)، كما يذكر فرومونتان الآلة الموسيقية التي تستعمل في الحفلات وهي الناي، حيث يقول: "صوت النَّاي العربي ينتشر في ليلٍ هادئٍ ويعلن أنّ الحفل سيبدأ"، ويقصد هنا مناسبة "المبيتة" التي ذكرها من قبل، والتي تعتبر مناسبة خاصَّةً في الحياة الصَّحراوية (Fromentin, 1856: 44).

أما عن ملامح النِّساء النائليات، فيقول "قوتي" Théophile Gautier أنهن كُنّ يتميّزن بوضع الكحل في العيون، ووصف حواجبهن بأنها مُتَّصلةً فوق الأنف، وأشفارعيونهن كانت طويلةً، ممَّا زاد من جمالهن وحُسنهنَّ، كما أكدّ ذلك أيضا "أوسون دو شانسيل" Ausone de Chancel (أنظر التعليق رقم:12) الذي يقول عن أولاد نائل: "إنهم أشخاص جيّدون وكرماء، تتمتع نساؤهن وبناتهنّ بحريَّةٍ كبيرةٍ، وكُنَّ يُنافسن قبيلة الحرازلية في الصَّحراء، من ناحية الجمال والشهرة" (Aurousseau, 2018: para 3)، وكلام الرَّحالة هنا صحيح، باستثناء الحديث عن الحرِّية الكبيرة للمرأة، فهي ليست بالشكل الذي وصف، بل ربما على العكس تمامًا، ونستشفُّ هذا بمقارنة كلامه مع بقية الرحّالة الذين زاروا المنطقة أو مرُّوا بها، والذين يُشيدون بقبائل أولاد نائل وتمسُّكهم بتعاليم دينهم رغم كل شيء، وإن كان ثمَّة من حالاتٍ فهي تبقى شاذَّة ولا يُقاس عليها في حياة المجتمع النائلي، ونساء أولاد نائل حسب موباسان ناضجاتٍ وجميلاتٍ في سن الخامسة عشر، لكنهن يُصبحن مُرهقات بعد الزَّواج بسبب الأعمال الشَّاقَّة طوال النهار، فهي تحمل طفلها فوق ظهرها وتسير عدة كيلومترات بحثا عن الماء من أماكن بعيدة، وفي سن الخامسة والعشرين تصبحن كالمسنّات، ووجوهنّ عليهن وشم بشكل نجوم سوداء، على الجبهة والوجنتين والذَّقن(Aurousseau, 2018: para 3)، ويقول فرومونتان أنّ تعدّد

الزوجات كان موجودا في عرش أولاد نائل، وأعطى مثال عن خادم السي الشريف المدعو بلقاسم، الذي كانت له زوجتين نائليتين جميلتين (Fromentin, 1856: 80)، والحقيقة أنَّ ظاهرة التَّعدد موجودة في أغلب القبائل والمجتمعات الإسلامية إذ يُقرّها الشرع الإسلامي ولا تزال موجودة، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿*فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ*﴾ (النساء: 3)، لكنها شهدت تراجعًا نسبيًا، بسبب الواقع المعيشي وتطوُّرات المجتمع النائلي الحديثة.

أما لباس نساء أولاد نائل، فيصفه موباسان بأنه كان واسعًا يلمع Oripeaux flam boyants، مُزيَّن بمجوهرات لامعة leurséclatants bijoux، ترافقه تسريحة شعر مرتفعة قليلا نحو الأعلى، وقد شبههنّ في هذا بالمصريات "leurshautes coiffures à diadème qui rappellent les bas reliefs égiyptiens" (Maupassant, 1884: 66)، أما لباس الرجل النائلي، فيقدمه لنا فرومونتان من خلال وصفه لأحد أشراف أبناء المنطقة، إذ يقول أنّه كان يرتدي ثيابًا بيضاء اللَّون ناصعة، إضافة إلى برنوسين أحدهما أسود وتحته آخر أبيض، ويصنع من الصوف الخشن أو من وبر الجمل، يتّسم بالاتِّساع ويُوضع على الكتفين، حيث يزيدهم هيبة ووقارًا واحتراما وصلابة، ويمثل اللباس الرسمي للأشراف، إضافة إلى جزمة حمراء طويلةٌ مصنوعةٌ من الجلد، كما يحمل سبحة من الخشب، ويُعلّق تعويذة "حجاب" لاعتقاده أنه يحميه، وأضاف فرومونتان بأن كل الملابس الجلديَّة والصُّوفيَّة غير مُزركشة وغير مُزيّنة بالحرير (Fromentin, 1856: 31-32)

وعن المسكن والفراش يذكر موباسان أن بعض المنازل كانت من التراب، أمّا في الواحات فكان سقف البيت مغطّى من النباتات المليئة بالعقارب والحشرات، أما الخيم فسوداء مخططة بالأصفر (ربما يقصد أحمر يميل إلى الأصفر) وهو لون الخيمة النائلية إلى اليوم، ومصنوعة من شعر الماعز أو وبر الجمل، وكانت قليلة الارتفاع، واسعة، محمولة على أعمدة، ومفتوحة من الجوانب بغرض تهوئتها، ومع ذلك كانت الحرارة جد مرتفعة في النهار،

في حين في الليل كانت معتدلة، أما فراشهم فكان من حصائر فوق بعضها البعض، إضافة لزرابي جميلةٍ لايدوسون عليها بأحذيتهم وكأنهم في المسجد، ووسائد مريحةٍ للجلوس(Maupassant, 1884: 70,88,89)، ويؤكد موباسان أن قبائل أولاد نائل كانوا يقدمون أحسن الزرابي والمفروشات للأجانب، وهذا يدلُّ على كرمهم وحُسنِ ضيافتهم واهتمامهم بالضَّيف، أما قهوتهم فكان ذوقها ممتازًا وتُقدّم في وعاء اسمه "القميلة" gamelle، فوق صينيَّة مصنوعة من خزفٍ انجليزي، وإبريقٍ مصنوعٍ من الرَّصاص، أما الماء فمن "القِرَبْ" المصنوعة من جلد الماعز(Maupassant, 1884: 89)، وبخصوص أطباق أولاد نائل فكانت متنوعة، إذ ذكر موباسان أربع أو خمسة أطباق: أولها الخروف المشوي، المقدّم في صينيةٍ مسطَّحةٍ مصنوعةٍ من الحلفاء يلتفون حولها، حيث شبّههم في طريقة أكلهم وتجمُّعهم بالأتراك، حيث كانوا يأكلون بأيديهم ويشربون حليب الماعز والجمال إضافة للَّبَن، كذلك هناك طبق الشخشوخة المصنوعة من التَّمر والمشمش المجفّف (الهرماس) وبعض العجائن، أما طبق الكسكسي فهو ما يميّز أكلهم، وأعطى له وصفًا دقيقًا وقدّم حتى طريقة تحضيره، كما أنَّهم يُقدِّمون كذلك بعض الحلويات المعسّلة، ويقول أنه في كل مرَّةٍ كانوا يشربون فيها القهوة، كان يقول لهم القائد كلمة "بصحتك" ويجيبونه بكلمة "الله يسلمك" (Maupassant,1884: 92-94)، ويؤكد فرومونتان أنّ الكرم صفة مُتجذّرة في أولاد نائل، حيث كانت عندهم مناسبة "الضيفة" والتي كانت سلوكا منتشرا ولها أهمية كبيرة، حيث تقدّم بها العديد من الوجبات، كبشان مشويان مع فطائر مورقة بالزبدة تقدم ساخنة، إضافة لطبق "راقو" ragoûtوهو عبارة عن خضر مع مرق أحمر ومكسّرات ولحم الخروف، ثم يُقدّم طبق الكسكسي في قطعة من الخشب (القصعة) يلتفّ حولها الجميع، أمّا المشروبات فكانت عبارة عن المياه، الحليب أو اللبن، وكان أولاد نائل يشربون الماء على عدّة دفعات لأجل ألاَّ يتنفسون في الوعاء (Aurousseau, 2018: para3)، وهذا طبعًا إتباعًا لسُنَّة النَّبي صلى الله عليه وسلم، مما يؤكد على الارتباط الديني لأهالي المنطقة بالتَّعاليم الإسلاميَّة.

IV- الخلاصة :

في نهاية هاته الورقة البحثية حول الحياة الاجتماعيَّة لأولاد نائل وجغرافيتهم خلال القرنين 18و19م، يمكن القول أن قبائل أولاد نائل التي استوطنت جُغرافيًا منطقة السُّهوب الوسطى، قد شكّل موقعها مَعْبَرًا، ملتقى وممرًّا استراتيجيًّا لشتّى القوافل والجيوش والحملات وحتى الرَّحلات، سواء في العهد العثماني خلال القرن18م، أو عهد الاحتلال الفرنسي في القرن19م.

وتُجمع كتب الرحلة التي مرّت بالمنطقة، في العهد العثماني على أن قبائل أولاد نائل كانت من القبائل الممتنعة عن نظام الحكم العثماني، ولم تدخل تحت الوصاية العثمانية (بايلك التيطري) إلّا سنة 1725م، من خلال دفع الغرامات. ونظرًا لطبيعة أولاد نائل المتميّزة بالتّرحال، لم يكن للعثمانيين عليهم سوى سلطةٍ رمزيَّةٍ، حتى أنهم كانوا غالبًا ما يرفضون دفع الأموال والقيام بانتفاضاتٍ وتمرُّداتٍ، ممّا اضطرّ الباي لشن الغارات على القبائل التي ترفض الدَّفع، كما تميَّزت الحياة الاجتماعيَّة لقبائل أولاد نائل خلال القرنين 18و19م، بالطَّريقة البدويَّة وعدم الاستقرار، فهم بدوٌ رُحَّلٌ، يمرُّون بالمناطق ويرحلون لا يتعلّقُون بالأرض ولا يستقِرُّون فيها، لا يملكون منازل غالبًا وإنّما خيم، وقد حافظوا على طبائعهم وعاداتهم وتقاليدهم، وتمسّكهم بدينهم خلال العهدين العثماني والاستعماري لبُعدهم عن مركز التأثير والقرار نسبيًا، ولطبيعة معيشتهم التي تميّزت بالتّرحال غالبًا، رغم وجود مراكز عمرانيةٍ قديمةٍ، إلَّا أن المراكز العمرانيَّة الحديثة كانت صغيرةٌ وقليلة الأهميَّة.

- ملاحق :

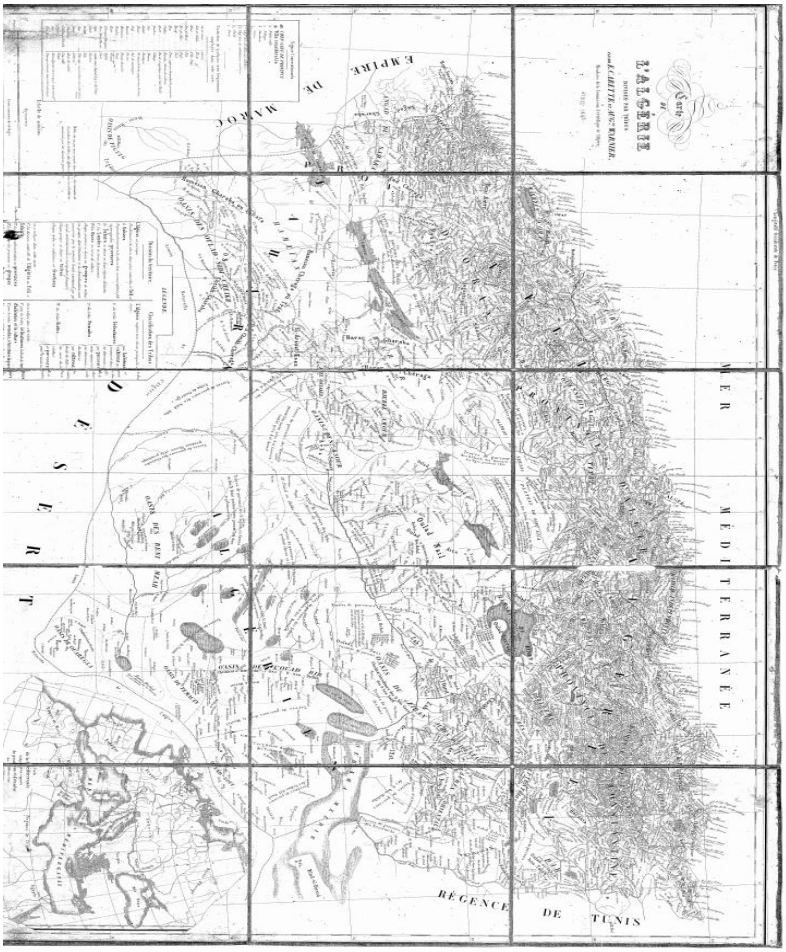

شكل (1) خارطة توضح توزع القبائل الجزائرية خلال القرن19م،ومنها قبيلة أولاد نائل

Nom original: ***Ghouati CARTE TRIBUS Algérie carette et warnier 1846.pdf***
Titre: ***CARTE tribus dz - Copie-ConvertImage***

المصدر: Ghouati Ahmed .(2003) *Elements Pour Comprendre L'Algerie,* Paris: Vincennes. .(n.Ed)
https://www.fichier-pdf.fr/2017/03/13/ghouati-carte-tribus-algerie-carette-et-warnier-1846/ghouati-carte-tribus-algerie-carette-et-warnier-1846.pdf

– التعليقات :

1) **لغةً**: بالعودة إلى ما أوردته معاجم اللغة العربية المختلفة، فإن تعاريف الرحلة تصب بوجه عام في مفهوم واحد، وهو الانتقال والمسير من مكان لآخر. (**أنظر:ابن منظور**، د.ت: 1609؛ الفيروز آبادي، د.ت: 394). **أما اصطلاحا**: فالرحلة كتابة يحكي فيها الرّحالة أحداث سفره وما شاهده وعاشه، مازجا ذلك بانطباعاته الذاتية حول المرتحل إليهم، وإنجاز الرحلة –كتابتها– يتطلب أن يكون الرحالة ذا مستوى ثقافي معين يؤهله لنقل أحداث سفره إلى كتابة.(**أنظر**: روباش، 2014-2015: 8).

2) كان ذلك حال الرحالة ابن خلدون (1406-1332م) في كتابه الشهير: «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر»، إذ تحوّلت رحلاته إلى تأملات في المبادئ التي تقام عليها الدول وتنهار، وبحث في أسباب الاجتماع البشري، وكان هذا أيضاً حال البيروني (ت 440هـ) في رحلته إلى الهند التي كرَّسها لتأمل الاختلاف الحضاري بين الشعوب الإسلامية من جهة، والشعوب التي تسكن الهند من جهة أخرى، وهو حال الرحالة العرب في القرن التاسع عشر أيضاً، لاسيما رفاعة رافع الطهطاوي (1874-1801) في كتابه «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»، وخير الدين التونسي (1810-1899م) في كتابه «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» وغيرهم الكثير. (**أنظر**: شترة ، 2015: 4)

3) **أولاد نائل**: ينسبون إلى محمد نائل بن عبد الله بن علّال بن موسى بن عبد السلام، الذي يتّصل نسبه بإدريس الأصغر، مؤسس مدينة فاس ودفينها، أصله من المغرب الأقصى، وقد كان حاكما مهابا في إقليم الساقية الحمراء، وفيه قاد معارك ضد الإقليم التونسي، ومنه توجّه نحو المغرب الأوسط واستقر في (برج أم نايل)، رفقة أقاربه وأتباعه، وبعد وفاة شيخه سي أحمد بن يوسف الملياني (931هـ/1525م)، ارتحل إلى مدينة الجزائر مُعلمًا لعدة سنوات، ومنها إلى الونشريس حيث نزل عند سيدي شعيب بن سيدي بوزيد معلما للقرآن لمدة عشرين سنة، قبل أن يحُطّ رحاله بنواحي سيدي عيسى وزاغز والمحاقن، ومن هناك انتشر أحفاده عبر أجزاء الأطلس الصحراوي بجباله وسهوله، وضربوا خيامهم ذات الخطوط الحمراء

والسوداء، وتعايشوا مع الأعراش المجاورة لهم من السّحاري وأولاد بن علية ، والعبازيز وأولاد يونس، حيث توطّدت بينهم روابط الأخوة وحسن المعاشرة. (**أنظر**: قذيفة، 2012: 36-40؛ محفوظي، 2006: 8-12).

4) **أبي العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي** (1057-1128هـ)، ترجم له الافراني ووصفه بالرجل الصالح والعالم الناصح. (**للمزيد أنظر**: الافراني، 2004: ص364-366؛ الحضيكي، 2006 :1/85-89).

5) **التينلاني** (**1181هـ/1767م -1233هـ/1817م**): عبد الرحمن بن إدريس بن عمر بن عبد القادر بن أحمد بن يوسف التينلاني، نسبة إلى مدينة تنيلان مسقط رأسه (الواقعة على بعد 2كلم حاليا شمال أدرار)، يُعدُّ من أعلام الرحلة في توات، كان عالمًا ماهرًا في أصول الفقه والتفسير، نشأ في أسرة علمية متميّزة، حيث تلقّى تعليمه الأولى بالزاوية التنيلانية خلال الفترة (1767-1782م) أين أتمّ حفظ القرآن، ثم انتقل إلى دراسة العلوم الإسلامية الأخرى، ليسافر بعدها إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى (1782-1790م)، حيث أخذ العلم هناك على عدة علماء وشيوخ، أشهرهم عبد القادر بن أحمد بن العربي أبو محمد بن شقرون (ت1804م)، ليعود إلى مسقط رأسه ويبدأ مسيرة جديدة في التعليم والتدريس، أين تخرّج على يديه الكثير من شيوخ وعلماء توات.(**أنظر**: بلعالم، 2010: 23).

6) **الباي محمد الكبير(مابين 1734 و1739 -1797م)**: هو محمد بن عثمان بن إبراهيم الكردي (الملقب بمحمد الكبير بعد فتح وهران)، لفتت شخصيته وأعماله اهتمام الكثير من الأدباء والمؤرخين، بدأ قائدا عسكريا على قبيلة فليتة بمعسكر، ثم صار خليفة للباي، ليصبح سنة 1780 بايا لبايلك الغرب الجزائري بمعسكر، وقد كان له فضل تحرير وهران النهائي من يد الأسبان سنة 1792م، حيث نقل مقر حكمه إلى هناك، وظلّ على رأسه إلى غاية سنة 1799م. (**يراجع ما كتبه:** Gorguos, 1857: pp28-46; 1859: pp347-357؛ و**للمزيد ينظر**: بن عتو، 2003، د.ص).

7) **أحمد بن هطّال التلمساني**: أحد علماء الجزائر أواخر العهد العثماني، شغل منصب رئيس الكتاب ببلاط الباي محمد الكبير، وسافر إلى المغرب الأقصى في مهام دبلوماسية من أجل جلب الذخيرة أثناء مساعي تحرير وهران من الاحتلال الاسباني، توفي سنة 1803م عهد الباي مصطفى، وذلك في معركة فرطاسة ضد الدرقاويين. (**ينظر**: بن عتو، د.ت:116).

8) يتكلم الكونت دي سانفيتال في مقاله: "قبائل الصحراء الجزائرية- أولا نائل الغرب" المنشور في مجلة الشرق، العدد 1854/15م، عن سكان المنطقة وعاداتهم وطبائعهم، ويقسم أولاد نائل إلى (شراقى) وهم المنتشرون ببوسعادة وأولاد جلال، و(غرابى) وهم التّابعون لمقاطعة المدية أي منطقة الجلفة، ويُحدّدهم في سبعة عروش: أولاد ضيا بن محمد بن مليك بن نائل في الشمال، أولاد سي محمد بن نائل في الغرب، أولاد عامر بن سعد بن سالم بن نائل في الشرق، أولاد فرج بن عيسى بن نائل في الشرق، أولاد سعد بن سالم بن نائل في الجنوب الغربي، أولاد عيسى بن سالم بن نائل في الجنوب الشرقي(**أنظر**: بن جدو، 2014: 103-104).

9) **أوجين فرومونتان Eugène Fromentin (1820-1876م)**: من مواليد مدينة "لاروشيل" La Rochelle بفرنسا، تدرّج في مراحل التعليم حتى الدكتوراه في الحقوق، لكنه لم يكملها لاشتغاله بممارسة هوايته في الرسم والّترحال، حيث ترك لوحات ورسومات إبداعية، إضافة إلى قليل من المؤلفات منها: "سنة في الساحل"، "ملاحظات رحلة إلى مصر"، ورواية "دومينيك". (**للمزيد أنظر**: Fromentin, 1981: 60,111,259-261)

10) **غي دو موباسان Henry-René-Albert-Guy de Maupassant (1850-1893)**: رحّالة وروائي فرنسي، ولد بقصر ميرون مسنل بنورماندیا، درس القانون، والتحق بالجيش الفرنسي ثم عمل ككاتب في البحرية، وفي أواخر سنة 1879م ترك العمل في إدارة المستعمرات ليعمل في وزارة المعارف التي تركها أيضا،

ليُكرّس حياته بين سنوات 1880-1890م للكتابة والتأليف، حيث أصدر مجموعة قصصية وست روايات وثلاث مجلدات من حكايا الرحلات ومئات الأخبار، وفي نهاية حياته أصيب بمرض شديد حتى الجنون، تحديدا سنة 1891م، ومات في إحدى المصحّات. (**أنظر**: موباسان، 2014: 5-8).

11) ينقل "باتريك أوروسو"Patrick Aurousseau عن "غوتي"Gautier.T قوله: "أنّ المبيتة une m'bita هي مناسبة تسمح برؤية عدّة أنواع من نساء المنطقة، والذي يعتبر أمرًا غير متاح دوما، خاصة حسب أعراف وديانة المنطقة وتعاليم الإسلام، حيث اعتبر فرومونتان بأنها طبائع غريبة في بلد مسلم- يقصد رقص النساء النايليات-" (**أنظر**:Aurousseau, 2018: para8)

12) **للمزيد حول الموضوع يراجع:**

Ausone de Chancel, **Le Sahara algérien, Études géographiques, statistiques et historiques, ouvrage rédigé sur les documents recueillis par les soins du lieutenant-colonel Daumas**, Paris, Langlois et Leclercq, 1845, p.162.

- الإحالات والمراجع :

1- باللغة العربية:

ابن بطوطة، محمد بن عبد الله. (1987). رحلة ابن بطوطة *تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار* (مج1-4، ط1). (تحقيق وتقديم: محمد عبد المنعم العريان؛ مراجعة: مصطفى القصاص). بيروت: دار إحياء العلوم.

ابن منظور الافريقي، المصري أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم . (د.ت). *لسان العرب* (ج18). (تحقيق: عبد الله علي الكبير) القاهرة: دار المعارف.

ابن هطال، أحمد التلمساني. (1969). *رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري* (د.ط). (محمد بن عبدالكريم الجزائري، المحرر) القاهرة: عالم الكتب.

الافراني، محمد بن الحاج. (2004). *صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر* (ط1). (تحقيق: عبد المجيد خيالي) الدار البيضاء، المملكة المغربية: مركز التراث الثقافي المغربي.

براركة، شوقي. (جوان, 2016). "ملامح من التوثيق في وثائق الرحلات مخطوط رحلة الشيخ التيملاني نموذجا" . *المجلة الجزائرية للدراسات التاريخية والقانونية*، (1-2)، 48-66.

بلحميسي، مولاي. (1981). *الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني*. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

بلعالم، عبد السلام الأسمر. (أفريل 2010). "أعلام فقه النوازل بمنطقة توات خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين" . *أعمال الملتقى الوطني الرابع إسهامات علماء توات في الحركة الفكرية والثقافية*.

بن جدو، عبد الفتاح. (جويلية, 2014). "منطقة الجلفة في مجلة الشرق Revue de L'Orient". *مجلة أنسنة للبحوث والدراسات*، (10)، 101-107.

بن عتو، بلبروات. (جوان, 2003). "الباي محمد الكبير باي وهران 1779-1797م". *مجلة عصور*، (3)، د.ص.

بن عتو، بلبروات. (د.ت). "اهتمام الاستشراق الفرنسي برحلة الباي محمد الكبير إلى جنوب الغرب الجزائري" . *مجلة الحوار المتوسطي*، (3-4)، 107-117.

تلمساني، بن يوسف. (26/25 جوان, 2015). "التوغل الفرنسي في السهوب الوسطى وتخوم الصحراء دراسة أرشيفية" . (الجمعية الولائية للبحث التاريخي والتراث بالجلفة، المحرر) *الملتقى الوطني الأول الجلفة مسيرة كفاح 1830-1962*، 15-45.

التمقروتي، علي بن محمد. (2007). *النفحة المسكية في السفارة التركية* (ط1). (تحقيق: محمد الصالحي) بيروت، لبنان: المؤسسة العربية للنشر.

الحضيكي، محمد بن أحمد. (2006). *طبقات الحضيكي* (ج1، ط1). المملكة المغربية: مطبعة النجاح الجديدة.

دباح، عائشة. (2017). "الرحلة العلمية وتأثيرها على الوضع الثقافي في الجزائر في عهد الدايات رحلة الحسين الورثلاني أنموذجا". *مجلة قضايا تاريخية*، (8)، 47-59.

الدرعي، أبي العباس أحمد بن محمد بن ناصر. (2011). *الرحلة الناصرية 1709-1710هـ* (ط1). (تحقيق: عبد الحفيظ ملوكي) أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة: دار السويدي للنشر والتوزيع.

الديسي، محمد بن عبدالرحمن. (2012). *تحفة الأفاضل في نسب سيدي نايل* (ط1). (شرح وتعليق: عبد الكريم قذيفة) الجزائر: الجمعية الثقافية للشيخ محمد بن عبدالرحمن الديسي.

روباش، جميلة. (2014-2015). أدب الرحلة في المغرب العربي. أطروحة دكتوراه، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر

سعد الله، أبو القاسم. (1998). *تاريخ الجزائر الثقافي* (ج2، ط1). بيروت: دار الغرب الإسلامي.

سعد الله، أبو القاسم. (1998). *تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830* (ج1، ط1). بيروت: دار الغرب الإسلامي.

سعد الله، أبو القاسم. (2007). *أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر* (ج2، ط.خ). الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع.

سعد الله، أبو القاسم. (2007).*أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر* (ج1، ط.خ). الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع.

الشاهدي، الحسن. (1990). *أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني* . منشورات عكاظ.

شترة، خير الدين. (2015). *رحلة الشيخ عبد الرحمن بن عمر التنيلاني إلى الحج 1189هـ*. الجزائر: دار كردادة للنشر والتوزيع.

شترة، خير الدين. (د.ت). "الوضع السياسي والعسكري للجزائر أواخر العهد العثماني من خلال مخطوط رحلة الشيخ عبد الرحمن بن إدريس التنيلاني إلى محروسة ثغر الجزائر سنة 1816م" . *مجلة التراث*، 5 (19)، 14-49.

علالي، محمود. (6 جويلية, 2014). "وصف المركز العسكري بالجلفة من خلال كتاب صيف في الصحراء للكاتب أوجين فرومنتان". *مجلة أنسنة للبحوث والدراسات* (10)، 15-24.

عمارة، البشير. (2017). "أهمية الرحلة الحجازية المغربية في كتابة تاريخ منطقة الجلفة العهد العثماني نموذجا". *ملتقى آثار وتاريخ الجلفة عبر العصور*. الجلفة: الجلفة تريبين. د.ص.

http://www.djelfatribune.com/?p=2994.

عميراوي، احميدة. (2009). *الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني مذكرات تيدنا أنموذجا*. الجزائر: دار الهدى.

غريب، جورج. (1966). *أدب الرحلة تاريخه وأعلامه المسعودي ابن بطوطة الريحاني* (ط1). بيروت، لبنان: دار الثقافة.

الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازي. (د.ت). *القاموس المحيط* (ج3).

ماكمان، محمد. (د.ت). *الرحلات المغربية في القرنين 11و12 للهجرة*. الرباط، المغرب: مطبعة الأمنية.

محفوظي، عامر بن المبروك. (2006). *تحفة السائل بباقة من تاريخ أولاد نائل* (د.ط). حاسي بحبح، الجزائر: دار اسامة للطباعة والنشر والتوزيع.

موباسان، غي دو. (2014). *الحلية المفقودة* (ط1). (ترجمة: أنطون موسى عرار، تقديم ومراجعة: جمال شحيد) دمشق، سوريا: الهيئة العامة السورية للكتاب.

المؤدن، عبد الرحيم. (2006). *الرحلة في الأدب المغربي* (د.ط). الدار البيضاء، المملكة المغربية: مطابع افريقيا الشرق.

نواب، عواطف بنت محمد يوسف. (2008). *كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين 11 و 12 الهجريين* (د.ط). الرياض: دارة الملك عبد العزيز.

نويهض، عادل. (1980). *معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر*. الجزائر: مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر.

هزرشي، بن جلول. (26/25 جوان, 2015). "دور زوايا منطقة الجلفة في الخدمة الاجتماعية إبان الفترة الاستعمارية". (الجمعية الولائية للبحث التاريخي والتراث بالجلفة) *الجلفة مسيرة كفاح 1830-1962*، 117-127.

الوزان، الحسن بن محمد الفاسي. (1983). *وصف افريقيا* (ط1). (ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر) بيروت: دار الغرب الاسلامي.

2- باللغة الأجنبية:

Aurousseau.P. (2018, Mars 21). "Le regard porté sur les prostituées en Algérie, un modèle de domination occidental ? L'exemple de l'apparition des « Ouled-Naïl » chez Fromentin, Maupassant et Gide". *Viatica CRLV* (5), n.p.

De Chancel Ausone .(1845) .*Le Sahara algérien ,Études géographiques, statistiques et historiques, ouvrage rédigésur les documents recueillis par les soins du lieutenant-colonel Daumas*.Paris: Langlois et Leclercq.

De Maupassant Guy .(1884) .*Au Soleil* (9em edition) .Paris: Victor Havard Editeur.

Fromenti Eugéne .(1981) .*Un EtéDans Le Sahara* (Présentation et notes par Anne marie Christine).Paris: Ed le sycomore (Appendice).

Ghouati Ahmed .(2003) *Elements Pour Comprendre L'Algerie,* (n.Ed) . Paris: Vincennes.

Gorguos A .(1857). "Notice sur le Bey d'Oran" .*R.A.* (2), 28-46.

Gorguos A .(1859) ."Expédition de Mohammed EL-Kebir, Bey de Mascara, dans les contrés du sud". *R.A,* (4), 347-357.

Sanvital De .(1854) ."tribus du sahara algérien les - Ouled-Nayls de l'ouest" .*Revue de L'Orient ،Tom 15*.

Ghouati Ahmed .(2003) Elements Pour Comprendre L'Algerie, (n.Ed) .Paris: Vincennes.

https://www.fichier-pdf.fr/2017/03/13/ghouati-carte-tribus-algerie-carette-et-warnier-1846/ghouati-carte-tribus-algerie-carette-et-warnier-1846.pdf